

قصة تاريخية:

ابن بنان والأسد

كان طولون مولى لنوح بن أسد، عامل المأمون على بخارى وخراسان، فأهداه نوح للمأمون مع جملة من المماليك، فأظهر كفاءة واقتداراً وإخلاصاً، فرقاه المأمون إلى مرتبة الإمارة، وجعله مشرفاً على الرقيق والبراذين. وفي سنة (٢٢٠هـ) ولد ابنه أحمد، فنشأ في منصب ذلة تستظهر بالطغيان، فحاول أن يتم هذا النقص، ويكون أكبر من أصله، فكان عقله من أثر طبيعته كالعقلين لرجلين مختلفين، فله يد مع الملائكة، وأخرى مع الشياطين (١).



محمد يوسف أيوب
سورية

حفظ أحمد بن طولون القرآن صغيراً وأتقنه، وكان من أطيب الناس صوتاً به مع كثرة الدرس وطلب العلم، وقد تفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة، ولما مات أبوه فوض الخليفة المتوكل له ما كان لأبيه، ثم انتقلت به الأحوال إلى أن ولي إمارة الثغور، ثم إمارة مصر والشام معاً، فكان في فترة إمارته كرجلين في رجل واحد، فكان تارة كالملائكة الأطهار، وتارة أخرى كالشياطين الأشرار، فقد كان يحب الخير، وينفق على الفقراء والمساكين، ويبني المساجد والمستشفيات، ويعطي العلماء وطلاب العلم، ويكثر من الصدقات، وينظر في مظالم الناس، ومع ذلك فقد كان حاد الطبع والمزاج ظالماً، إذا غضب طاشت سهام غضبه في كل اتجاه.

ولما اشتد ظلمه، وطغى بطشه، شكاه الناس إلى أبي الحسن أحمد بن بنان، الذي لم يكن يخشى في الحق لومة لائم، فسارع إليه، ودخل قصره، ووقف بين يديه وجلساؤه من حوله، وصرخ في وجهه:

اتق الله في الرعية يا ابن طولون، فإنك مسؤول عنهم أمام رب العزة، «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم»، واعلم أن من غش رعيته فإنه لم يرح رائحة الجنة.

ساد جو القصر صمت رهيب، ولم يصدق ابن طولون والحاضرون ما سمعوه ورأوه، فكيف يجروء مثل هذا الرجل أن يتحدث بمثل ما سمعوه أمام الأمير ابن طولون؟ واتجهت أنظار الجميع نحو الأمير ينتظرون ما سيصدر عنه من قول وفعل، وقد أذهلتهم المفاجأة جميعاً.

ارتجف ابن طولون، وانتفخت أوداجه، وتطاير الشر من عينيه، وصاح بالحرس من حوله:

اقبضوا على هذا المجنون وأودعوه السجن. وبسرعة البرق، اجتمع الحراس الأشداء، وقيدوا أبا الحسن بن بنان، وذهبوا به إلى السجن.

انفض مجلس الأمير بعد أن رأى جلساؤه تعكر مزاجه، وتغير أحواله، وذهب الأمير إلى فراشه كي ينام، ولكنه وجد أن النوم قد طار من عينيه، وتحول فراشه الوثير إلى كومة من الأشواك، فقد طاش عقله مما سمعه وشاهده من هذا الرجل، صاح بحراسه:

فاقبلوا يركضون، قال لهم:

هاتوا ذلك السجين المجنون. جيء بأبي الحسن ووقف أمام





بقلم: حسن محمد الزهراني
السعودية

عقوق

هذا الشعاع الذمبي الجميل تبثه الشمس قبيل الغروب، وهي متكئة على نعش الأصل، تودع الكون على أمل اللقاء القريب، وأمام الباب تجلس العجوز وحيدة تنتظر إلى الشمس، وتتابع خطوات رحيلها مستمتعة بساعة الأصل الجميلة، محدثة نفسها بهمسات حائرة. كم هي عجيبة هذه الشمس، التي تبث هذا الضياء على مر العصور والأعوام دون ملل أو شكوى. تحترق لتضيء الكون، وتجري لتعيد الحياة كل يوم على الأرض بأمر ربها دون أن تنتظر الشكر من أحد أو رد جميلها، ومن له القدرة على رد جميل الشمس؟ وكيف يستطيع رده لو أراد ذلك؟ فسبحان من سخرها لنا وهو أعلم بسرّها وهو الجدير بالشكر والثناء. وتنهزم الذكريات من غابر الأيام وتجري في نهر العمر الذي ما زال يقاوم أسنة الدهر وسيفه المشوكة. أول قطرات الذكريات أيام الفرح الأولى مع فارس الأحلام، وابتسمت وهي تتذكر البشري يحملها الأول، ما زال صدى الكلمة يتردد في مسمعها إلى الآن. وكما كانت أيام الحمل مرة ومتعبة، مع شغل العيش وكثرة الأعمال المضنية، منذ السحر إلى غروب الشمس في الحقول مع الزوج وبقيّة الأسرة، كل شيء كان يعتمد على العمل اليدوي في البيت أو في الحقل، ومع ذلك كانت الحياة جميلة لا وقت للفراغ وأحياناً لا وقت للراحة قبل الغروب. وتمرّ الأيام ويخرج (محمد) إلى الوجود، وتملأ الفرحه قلوب أهل القرية المتحابين، وتقام الوليمة وتتوالى التهاني. وتتجاوز فرحتي حدود الفرح. ويكاد القلب يخرج من صدري ليرقبه عندما تغفل عيني، كأنني الوحيدة في هذا العالم التي أنجبت ولداً. ملك كل وقتي وشغل كل تفكيرتي، فرحت بحبوه، وفرحت بسيره، وفرحت بكلامه عندما بدأ يتكلم.

(٢)

آه أيتها الشمس الراحلة!! إن هذا الذي منحته كل هذا يتشاغل بمداعبة أبنائه عن الحديث معي، أسأل فلا يجيب، أتحدث معه فيميل بوجهه عني متشاغلاً بأي شيء حوله، وكان التي معه صخرة في ركن البيت، وأنا أقول في نفسي، كم كانت فرحتي عندما نطق أول كلمة، وتزداد مع كل كلمة تكتسبها. أردتها كالمجنونة أخبر بها كل أفراد الأسرة، وكل من أقابله من أهالي القرية، وكأنك أول من نطق بهذه الكلمة، وما أنت تبخل علي حتى بالكلام الذي علمتك إياه.. كلمة كلمة.. بل حرفاً حرفاً. قد تجد يا محمد من هؤلاء الصغار الذين تتشاغل بهم عني مثلاً وجدت أنا منك برغم أنني لا أتمنى لك ذلك.

وتتابع حبات العقد وأنا أجد مع كل واحد من إخوتك الذين نهجوا نهجك وساروا في طريقك.. ما وجدت معك وربما أكثر.. لأن المسؤوليات والأعمال تتضاعف مع قدوم كل واحد منكم إلى الحياة. ومع ذلك فإن كل واحد منكم كان وما يزال يتربع على زاوية من عرش الفؤاد الجريح. كانت ضحكة الواحد منكم في الصباح تطفئ جحيم السهر طوال الليل. وابتسامة الواحد منكم في المساء تمحو آثار التعب والإرهاق طوال النهار.

أيها الأوفياء لو كانت دموعي ملك يدي لما ذرفت عليكم وعلى ما فعلتم معي دموعاً واحدة. ولبقيت محافظة على كبرياتي أمامكم، هذه الدموع التي كنت عندما أراها على خد أحدكم كأنها جمرة تثقل بين الجوانح.. ولا يهدأ لي بال حتى أمسحها بكل حنان، وأزيل مسبباتها مهما كلفني ذلك. وهي اليوم تسيل على خدي دون أن تثير شفقة أي منكم أو عطفه. يا لئكران الجميل وتجاهل الفضل والمعروف! كم هو قاس عقوق الأبناء. كم هو مؤلم، ولكن لن تروا مني بعد اليوم دموعاً واحدة. سأدوس على قلبي، وألقي مشاعري وأتحامل على عواطف.. سأنسى كل الماضي.. سأكون مثل الشمس، لن أنتظر رد الجميل منكم وأي جميل هذا الذي سوف تقدرون على رده؟! ليس بوسعكم بل ليس في هذا الكون ما يرد جميل الأم. كما أنه ليس بوسعنا رد جميل الشمس. ولكن سانتظر الأجر من الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ابن طولون مرفوع الرأس، قال له ابن طولون:
يا أبا الحسن، كيف تفعل ما فعلت أمام الناس؟
ولكن لا بأس، فإنني سأعفو عنك إن اعتذرت عما بدر منك غداً أمام الناس.

قال أبو الحسن برباطة جأش:
أنا لم أقترب ذنباً أيها الأمير! وإنما قدمت نصيحة.

صاح الأمير بالحرس:
خذوه إلى السجن وجوعوا له الأسد ثلاثة أيام، كي لا تراه عيني مرة أخرى.
قال أبو الحسن:

الأعمار بيد الله أيها الأمير، وأنت عبد من عباده، لا تستطيع أن تقدم أو تؤخر في عمري لحظة واحدة. حمل الحراس أبا الحسن وهو مقيد بالسلاسل إلى السجن مرة أخرى...

وكان ابن الأمير (خمارويه) مغرمًا باقتناء الأسود، فكلما سمع بأسد في أجمة ذهب إليه واصطاده، ووضع في قفص في القصر، حتى اجتمع له مجموعة كبيرة من الأسود.. جاء الحراس بأقوى تلك الأسود وجوعوه ثلاثة أيام..

جاء بابي الحسن من السجن ووضع في ميدان فسيح لينظر الناس كيف سيفترسه الأسد، ثم جاء بالأسد وهو في قفصه، وفتحوا له باب القفص، فتمطى ذلك الأسد، وبدأت عظامه تتققع، وانطلق من مجراً كالرعد القاصف، وكان الشيخ ساجداً لربه يصلي، فلم ينتبه للأسد، وعندما دخل الأسد على أبي الحسن، ألقى هنيئته، ثم قام ومشى نحو الشيخ يحثك به ويشمه، وكأنه يقول للناس: إن هذه المباراة بين إرادة الله عز وجل وإرادة الأمير ابن طولون...

ذهل الحاضرون لما رأوه وكان أشدهم ذهولاً الأمير ابن طولون، الذي صاح بالحراس ارجعوا الأسد إلى قفصه، وهاتوا أبا الحسن إلى هنا...

جاء أبو الحسن ومثل مرة أخرى أمام الأمير وهو رابط الجأش، مرفوع الرأس، فقال الأمير كيف حالك يا أبا الحسن؟!

قال أبو الحسن:

بخير كما ترى أيها الأمير!

قال الأمير: ما الذي كان في قلبك؟ وفيما كنت تفكر؟

قال أبو الحسن:

لم يكن عليّ بأس، فقد كنت أقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨) وكنت أفكر في لعب الأسد هل هو طاهر أم نجس؟ عند ذلك قام الأمير إلى أبي الحسن، وقبل رأسه، وطلب العفو منه، وأطلق سراحه...

(١) وحي القلم للرافعي (٤٨/٣).